

## تفسير سورة الشعراء

وهي مكية . ووقع في تفسير مالك المروى عنه تسميتها : سورة الجامعة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ بَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي كَتَبَ الْكِتَابَ الْقُدْسِ ﴿١﴾ لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ تُقْرَأُ ﴿٢﴾ وَإِن كُنَّا لَنَرَاهُ فِي صَدْرِكَ مُتَسَنِّئًا ﴿٣﴾ وَمَا يُبَيِّنُ لَنَا الْبَيِّنَاتِ ﴿٤﴾ وَمَا يُخْفِي خِطَابَهُ الْغَيْبَاتِ ﴿٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرِي الْوَسْوَاسَ الْكَافِرِ ﴿٦﴾ إِنَّكَ أَنتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٧﴾ وَإِن كُنَّا لَنَرَاهُ فِي صَدْرِكَ مُتَسَنِّئًا ﴿٨﴾ وَمَا يُبَيِّنُ لَنَا الْبَيِّنَاتِ ﴿٩﴾ وَمَا يُخْفِي خِطَابَهُ الْغَيْبَاتِ ﴿١٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرِي الْوَسْوَاسَ الْكَافِرِ ﴿١١﴾ إِنَّكَ أَنتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة ، فقد تكلمنا عليه في أول سورة البقرة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أي : هذه آيات القرآن المبين ، أي : البين الواضح ، الذي يفصل بين الحق والباطل ، والحق والرشاد .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : مهلك ﴿ نَفْسِكَ ﴾ أي : بما تحرص وتحزن عليهم ﴿ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [ فاطر : ٨ ] ، وقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : فلعلك باخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴿ [ الكهف : ٦ ] . قال مجاهد ، وعكرمة ، وقناة ، وغيرهم : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ ﴾ أي : قاتل نفسك .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أي : لو شئنا لانزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكن لا نفعل ذلك ؛ لانا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري ؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [ يونس : ٩٩ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [ هود : ١١١ ، ١١٩ ] ، فنقد قدره ، ومضت حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يُبَيِّنُ لَنَا الْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ يوسف : ١٠٣ ] ، وقال : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْغَايِبِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [ يس : ٢٠ ] ، وقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعُوا مَعْضَمَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِينَ فَبَعْدَ الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ المؤمنون : ٤٤ ] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبا هذا التكذيب بعد حين ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [ الشعراء : ٢٢٧ ] .

ثم نبه تعالى على عظمة في سلطانه وجلالة قدره وشانه ، الذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذي خلق الأرض وأبنت فيها من كل زوج كريم ، من

رروع وثمار وحيوان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذى بسط الارض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره . وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أى : بخلقه، فلا يعجل على من عصاه ، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالیه ، وقتادة : العزيز فى نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره . وقال سعيد بن جبیر : الرحيم بمن تاب إليه واتاب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْمَقْلُوبِ ۚ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ۚ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۚ وَيَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۚ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۚ قَالَ كَلَّا فَذِهِمُ إِنَّمَا مَعْكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ۚ فَأَيًّا فِرْعَوْنَ يَقُولَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ أَلَمْ نَرْسِلْ مِنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۚ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرُكَ سِنِينَ ۚ وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْآتِي فَعَلْتِ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۚ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۚ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۚ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَيْهَا أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۚ ﴾

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكنيحه موسى بن عمران ، عليه السلام ، حين ناداه من جانب الطور الايمن، وكلمه وناجاه ، وارسله واصطفاه، وامره بالذهاب إلى فرعون وملكه ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ . وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال فى سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . واحلّل عقدة من لساني . بفقهوا قولي . واجعل لي زبيرا من أهلي . هارون أخي . اخذ به أوزي . وأشركه في أمري . حتى نسحتك كثيرا . وتذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت مؤلك يا موسى ﴾ [ طه : ٢٥ - ٣٦ ] .

وقوله : ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أى : بسبب ماكان من قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى : قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك كما قال : ﴿ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : برهانا ﴿ فَلَا يَعْزُبُونَ إِلَيْكُمَا بِأَهَانَتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ أَتَمَّكُمَا الْعَالَمُونَ ﴾ [ القصص : ٣٥ ] . ﴿ فَذِهِمُ إِنَّمَا مَعْكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [ طه : ٤٦ ] .

أى : إننى معكما بحفظى وكلامتى ونصرى وتأييدى . ﴿ فَأَيًّا فِرْعَوْنَ يَقُولَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقال فى الآية الاخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [ طه : ٤٧ ] أى : كل منا رسول الله إليك ، ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مِنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون، وهم معك فى العذاب المهين . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ، ونظر بعين الازدرء والغمص فقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرُكَ سِنِينَ . وَقَعَلْتَ فَعَلْتِكِ الْآتِي فَعَلْتِ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : أما أنت الذى ربيناه فىنا ، وفى بيتنا وعلى فراشنا وغذينا ، وانعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك القفلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا

عليك ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ اى : الجاحدين . قاله ابن عباس ، وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم ، واختاره ابن جرير .

﴿ قَالَ فَطَعْنَاهَا إِذَا ﴾ اى : فى تلك الحال ، ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ اى : قبل أن يوحى إلى وينعم الله على بالرسالة والنبوة . قال ابن عباس ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ اى : الجاهلين . ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَلَلِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ اى : انفصل الحال الاول وجاء امر آخر ، فقد ارسلنى الله إليك ، فإن اطعته سلمت ، وإن خالفته عطبت .

ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ اى : وما احسنت إلى وربيتنى مقابل ما اسأت إلى بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخداماً ، تصرفهم فى اعمالك ومشاق رعبك ، اقبى احسانك إلى رجل واحد منهم بما اسأت إلى مجموعهم ؟ اى : ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ، وغمده وطفيفانه وجوده ، فى قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ وذلك انه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [ القصص : ٢٨ ] ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ ﴾ [ الزخرف : ٥٤ ] ، وكانوا يجحدون الصانع - تعالى - ويعتقدون انه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الزخرف : ٤٦ ] ، قال له : ومن هذا الذى تزعم انه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وائمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [ طه : ٤٩ ، ٥٠ ] فعند ذلك قال موسى لما ساله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ اى : خالق جميع ذلك ومالكة ، والمتصرف فيه وإلهه ، لاشريك له ، هو الله الذى خلق الاشياء كلها ، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ اى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وإبصار نافذة .

فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملته ورؤساء دولته قائلاً لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : ﴿ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ اى : الا تعجبون بما يقول هذا فى رعمه : أن لكم إلهاً غيرى ؟ فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴾ اى : خالقكم وخالق آباءكم الاولين ، الذين كانوا قبل فرعون ورماته . ﴿ قَالَ ﴾ اى : فرعون لقومه : ﴿ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ اى : ليس له عقل فى دعواه أن ثم ربا غيرى . ﴿ قَالَ ﴾ اى : موسى لاولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴾ اى : هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها

وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سَخَّرَهَا فِيهِ وَقَدَّرَهَا ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِى يَزْعَمُ أَنَّهُ رِيكِمٌ وَإِلَهُكُم صَادِقًا فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً ، كما أخبر تعالى عن ﴿ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى ، عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُوتِينَ ﴾ ﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ قَالَ فَأَتَيْتُ بِهِ إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ وَرَزَقَ يَمْرُؤَهُ إِذَا هِيَ يَبْصَأُ لِلظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْتَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ﴿ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ ﴿

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال ، فقال : ﴿ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُوتِينَ ﴾ . فعند ذلك قال موسى : ﴿ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : بيران قاطع واضح ﴿ قَالَ فَأَتَيْتُ بِهِ إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ﴿ وَرَزَقَ يَمْرُؤَهُ ﴾ أى : من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ يَبْصَأُ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى : تتلالا كقطعة من القمر . فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعدا ، فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : فاضل بارع فى السحر . فَرَوَّجَ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ لَا مِنْ قَبِيلِ الْمَعْجِزَةِ ، ثُمَّ هَيَّجَهُمْ وَحَرَضَهُمْ عَلَى مَخَالَفَتِهِ ، وَالْكَفْرِ بِهِ . فقال : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى : أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره واتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشبهوا على فيه ماذا اصنع به ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْتَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : أخوه وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصره والتأييد . فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم فى ذلك ؛ ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة .

﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِيَقِيتَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّنَا نَبْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَينَ الْمَقْرِبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ هُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ ﴿ فَأَلْفَوْا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴾ ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ إِنَّ رَبَّكَ رَبُّ رَبِّ هَآؤُنَّ وَمِثْرُونَ ﴾ ﴿

ذكر تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط فى « سورة الأعراف » وفى « سورة طه »، وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفثوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [ الانبياء : ١٨ ] ، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [ الإسراء : ٨١ ] ، ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنمهم وأشدهم تخيلا فى ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ، وجملاً غفيراً ، والله اعلم بمدتهم ، واجتهد الناس فى الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم : ﴿ لَمَلْنَا تَبِيعَ السُّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ ، ولم يقولوا : تتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم ﴿ قَلَّمَا جَاءَ السُّحْرَةَ ﴾ أى : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً ، وجمع حشمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدي فرعون ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أى هذا الذى جمعنا من أجله ، فقالوا : ﴿ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ أى : وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندى وجلسائى . فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ [ طه : ٦٥ ، ٦٦ ] ، وقد اختصر هذا هنا . فقال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمْ وَعَصِيهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله فى « سورة الأعراف » : أنهم ﴿ سَحَرُوا عَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [ الأعراف : ١١٦ ] ، وقال فى « سورة طه » : ﴿ فَإِذَا حِجَالَهُمْ وَعَصِيهِمْ بَخِلَ عَلَيْهِ مِنْ سَحَرِهِمْ أَتَى سَعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قَلَّمَا لَا تَخْفَى عَلَيْكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [ طه : ٦٦ - ٦٩ ] . وقال هنا : ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى : تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً ، قال تعالى : ﴿ فَرَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فغلبوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ . وَأَلْقَى السُّحْرَةَ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [ الأعراف : ١١٨-١٢٢ ] وكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وأسنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعددهم ، ويقول : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [ طه : ٧١ ] ، وقال : ﴿ إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأعراف : ١٢٣ ] .

﴿ قَالَ أَمَسَّرُ لَمْ يَقْبَلْ أَنْ مَادَّنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبَّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم ، وتوعددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا

يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أبله به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ آمَنَّمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنُ لَكُمْ ﴾ ؟ أى : كان ينبغي أن تستأذنونى فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علىّ فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لا خسر ﴾ أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُقْلَبُونَ ﴾ أى : المرجع إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا نَنْفَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أى : ما قارفناه من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم كلهم .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ فَارْتَضِعُوا فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٢﴾ إِنَّ هَذِهِ لَشَرِّ ذِمَّةٍ قَبِلْتُمْ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٦﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارِيرٍ كَرِيمٍ ﴿٥٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٨﴾ ﴾

لما طال مقام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حُجَجَ الله وبراهينه على فرعون وملته ، وهم مع ذلك يكابرون ويماندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والتكال ، فأمر الله موسى ، عليه السلام ، أن يخرج بينى إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً . وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذى حمله بنفسه ، عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم .

فلما أصبحوا وليس فى ناديهم داع ولا مجيب ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل ؛ لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا فى بلاده حاشرين ، أى : من يحشر الجند ويجمعه ، كالنقباء والحجباب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أى : بنى إسرائيل ﴿ لَشَرِّ ذِمَّةٍ قَبِلْتُمْ ﴾ أى : لطائفة قليلة ﴿ وَأَنْتُمْ لَنَا نَفَاقُونَ ﴾ أى : كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ، ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ أى : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستاصل شافتهم ، وأبيد خضرأهم . فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الواقف فى الدنيا ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ الآية [ الاعراف : ١٣٧ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [ الأيتين ] القصص : ٥ ، ٦ .

﴿ فَأَتَيْنَهُمُ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي

سَيِّدِينَ ﴿٦٠﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾  
وَأَرْزَلْنَا نَمِّ الْأَخْرَيْنِ ﴿٦٢﴾ وَأَجْمِنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرَيْنِ ﴿٦٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ  
أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٦﴾

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير ، هو عبارة عن مملكة  
الديار المصرية في زمانه ، أولى الحل والعقد والدول ، من الامراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود  
﴿ فَأَتَبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ ﴾ أى :  
راى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَنُدْرِكُوكُمْ ﴾ . وذلك أنه انتهى بهم السير  
إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلهذا قالوا :  
﴿ إِنَّا لَنُدْرِكُوكُمْ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم شيء مما تحذرون ، فإن الله ، سبحانه ،  
هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد . وكان هارون ، عليه السلام ، فى المقدمة ،  
ومعه يوشع بن نون ، ومؤمن آل فرعون وموسى ، عليه السلام ، فى الساقة .

وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ ، فضربه بها ، ففيها سلطان الله الذى أعطاه  
﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ،  
وغيرهم . وقال عطاء الخراسانى : هو الفج بين الجبلين . وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر  
طريقاً ، لكل سبط طريق ، وبعث الله الريح على قعر البحر فلفحته ، فصار يبساً كوجه الارض ، قال  
الله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [ طه : ٧٧ ] ، وقال فى هذه  
القصة : ﴿ وَأَرْزَلْنَا ﴾ أى : هنالك ﴿ الْأَخْرَيْنِ ﴾ . قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ،  
والسدى : ﴿ وَأَرْزَلْنَا ﴾ أى : قربنا فرعون وجنوده من البحر وأديناهم إليه ﴿ وَأَجْمِنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ .  
ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرَيْنِ ﴾ أى : أجمينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق  
فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل إلا هلك .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى : فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد  
لعباد الله المؤمنين ؛ للدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾  
تقدم تفسيره .

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿٦٧﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا  
فَنَنْظِلُ لَهَا عَنَّا نَجْمًا ﴿٦٩﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٠﴾ أَوْ يَبْهَتُونَكُمْ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا بَلْ  
يَسْمَعُونَ ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٢﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٣﴾ أَنْتُمْ ءَوْبَابُكُمْ الْأَقْدَمُونَ  
﴿٧٤﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْمَلَائِكَةِ ﴿٧٥﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، أمر الله رسوله محمداً  
ﷺ أن يتلوه على أمته ، ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبرىء  
من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشه من قبل ، أى : من صغره إلى كبره ، فإنه من

وقت نشأ وشب، انكر على قومه عبادة الاصنام مع الله، عز وجل، فقال ﴿لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أى: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴿فألوا تعبد أصناماً تقفل لها عاكفين﴾ أى: مقيمين على عبادتها ودعائها، ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينظرونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ يعنى: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يهرعون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدوا لى إلا رب العالمين﴾ أى: إن كانت هذه الاصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلى بالمساءة، فإنى عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها. وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام: ﴿فاجتمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم أقضوا لى ولا تنظرون﴾ [يونس: ٧١]، وقال عود، عليه السلام: ﴿إنى أشهد الله وأشهدوا أنى برهه مما تشركون. من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون. إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم﴾ [مرد: ٥٤ - ٥٦]. وهكذا تبرا إبراهيم من آلهتهم وقال: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ [الانعام: ٨١]. وقال تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم الفداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ [المتحة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنى برآء مما تعبدون. إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] يعنى: لا إله إلا الله.

﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾ وَالَّذى هُوَ يُطْمِئِنُّ وَيَسْقِينُ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينُ﴾ وَالَّذى يُمِيتُنى ثُمَّ يُحْيِينى ﴿وَالَّذى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لى خَطِيئَتى يَوْمَ الدِّينِ﴾

يعنى: لا اعبد إلا الذى يفعل هذه الاشياء ﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾ أى: هو الخالق الذى قدر قدراً، وهدى الخلاق إليه، فكل يجرى على ما قدر، وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿والذى هو يطمئني ويسقين﴾ أى: هو خالقى ورازقى، بما سخر ويسر من الاسباب السماوية والارضية، فساق الممزن، وانزل الماء، واحيا به الارض، وأخرج به من كل الشمرات رزقا للعباد، وانزل الماء عذبا لزالا لـ ﴿تسفيه مما خلقنا نعماً وأناسي كفيراً﴾ [الفرقان: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينُ﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن اضافته إلى نفسه ادبا، كما قال تعالى أمراً للمصلى أن يقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فأسند الإنعام إلى الله، سبحانه وتعالى، والغضب حذف فاعله ادباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وأنأ لا ندري أفرأيد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ [الجن: ١٠]؛ وكذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينُ﴾ أى: إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره، بما يقدر من الاسباب الموصلة إليه، ﴿والذى يميتنى ثم يحيىنى﴾ أى: هو الذى يحيى ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذى يبدئ ويعيد ﴿والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾ أى: لا يقدر على غفر الذنوب فى الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟! وهو الفعال لما يشاء.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَنَّةَ بِالصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنَ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِهِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ﴿

وهذا سؤال من إبراهيم ، عليه السلام ، أن يؤتبه ربه حكماً . قال ابن عباس : وهو العلم . وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدي : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَالْجَنَّةِ ﴾ : أي : اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة ، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار : « اللهم الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً (١) .

وقوله : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ : أي : واجعل لي ذكراً جميلاً بعدى أذكر به ، ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصفوات : ١٠٨ - ١١٠] . قال مجاهد ، وقتادة : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ : يعني : الشاء الحسن . قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنكوت : ٢٧] ، وكقوله : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] . قال ليث بن أبي سليم : كل ملة تحبه وتتولاها . وكذا قال عكرمة . وقوله : ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنَ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ : أي : أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم .

وقوله : ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِهِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وهذا مما رجح عنه إبراهيم ، عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدْنَاهُ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا أَمْلَكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [المتحة : ٤] .

وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ : أي : اجزني من الخزي يوم القيامة ويوم بيعت الخلائق أولهم وآخرهم . روى البخاري عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة » (٢) . وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون . فيقول الله تعالى : إنني حرمت الجنة على الكافرين » . هكذا رواه عند هذه الآية (٣) . وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة ، وعلى وجه أزر قتره وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لاتعصني؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون ، فأى خزي أخزى من أبى الأبعد؟ فيقول الله تعالى : إنني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقول : يا إبراهيم ، انظر تحت رجلك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار (٤) .

والذيخ : هو الذكر من الضباع ، كأنه حول أزر إلى صورة ذيخ متلطح بعدزته ، فيلقى في النار كذلك .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ : أي : لا يقي المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بجملة الأرض

(١) البخارى (٦٥٠٩) ومسلم (٤٦ / ٢١٩١) .

(٢) البخارى (٤٧٦٩) .

(٣) البخارى (٣٣٥٠) .

(٤) البخارى (٤٧٦٩) .

ذعبا، ﴿وَلَا يَتُونَ﴾ ولو افتدى بمن في الأرض جميعا، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أى : سالم من الدنس والشرك . قال محمد ابن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال ابن عباس : ﴿إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ معنى : يشهد أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ معنى : من الشرك . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة : ١٠] . وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

﴿وَأَزَلَّتْ أَلْبَتَّةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنَّى مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ﴿فَكَيْفَ يُكْفَرُوا بِهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ ﴿وَجَنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِذْ نَسُوَكُمْ رَبِّبِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ﴿قُلْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ﴾ أى : قريت وأدنت من أهلها مزخرقة مزينة لناظرها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما فى الدنيا، وعملوا لها فى الدنيا ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أى : أظهرت وكشفت عنها ، وبدت منها عنتى ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر ، وقيل لاهلها تقرعاً وتوبيخاً : ﴿أَنَّى مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ؟﴾ أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله ، من تلك الاصنام والأنداد تنقذ عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛ فإنكم وإياها اليوم حسب جهنم أنتم لها واردون .

وقوله : ﴿فَكَيْفَ يُكْفَرُوا بِهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال مجاهد : معنى : قد هووا فيها . وقال غيره : كبروا فيها . والكاف مكررة ، والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿وَجَنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أى : ألقوا فيها عن آخرهم ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نَسُوَكُمْ رَبِّبِ الْعَالَمِينَ﴾ أى : يقول الضعفاء الذين استكبروا : ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ﴾ [ غافر : ٤٧ ] . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نَسُوَكُمْ رَبِّبِ الْعَالَمِينَ﴾ أى : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى : ما دحنا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ قال بعضهم : معنى من الملائكة ، كما يقولون : ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَاعَةٍ فَيُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الاعراف : ٥٣] . وكذا قالوا : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أى : قريب . قال قتادة : يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع . ﴿قُلْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو ، سبحانه وتعالى ،

يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة « ص » ، ثم قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ ص : ٦٤ ] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد آية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُورَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَانْقُرُوا اللَّهَ فَأَنْقُرُوا اللَّهَ ﴿١٠٨﴾ وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴿١٠٩﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾

هذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، وهو أول رسول بعث الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الاصنام والانداد ، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ، ومحذراً من وبيل عقابه ، فكذب قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُورَ ﴾ أي : ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي : إني رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثني به ، أبلغكم رسالة الله لا أريد فيها ولا أنقص منها ﴿ فَانْقُرُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم ، بل ادخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فَانْقُرُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ فقد وضع لكم ويان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به واتممتي عليه .

﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً وَأَنْزَلْنَاكَ الْأَنْزُلُونَ ﴿١١٠﴾ قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾

يقولون : لا نؤمن لك ولا نتبعك ، وننأسى في ذلك بهؤلاء الأذليين الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَنْزِلْ لَنَا آيَةً وَأَنْزَلْنَاكَ الْأَنْزُلُونَ . قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؟ أي : وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التقيب عنه والبحث والفحص ، إنما على أن أقبل منهم تصديقهم لي ، وأكل مرائهم إلى الله ، عز وجل ، ﴿ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : إنما بعثت نذيراً ، فمن اطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنتم منه ، سواء كان شريفاً أو ضيعاً ، جليلاً أو حقيراً .

﴿ قَالُوا لَيْن لَر نَنْتَه يَنْتَه يَنْتَه لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٦﴾ فَانْفَع بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ فَانجِنْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١١٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢١﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وجهرأ وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا في الآخر : ﴿ قَبْلَ لَمْ نَقْتَهُ ﴾ : أى : دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ تَكُونُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ : أى : لترجمنك . فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ . فَاقْبَعْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَخَا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ لَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْتَهَر . فَجَارَتْهَا الْأَرْضُ عَيُونًا فَانْقَضَى الْمَاءُ عَلَى أُمَّرُقَدٍ قَدِير . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَرْوَاحِ وَدُسِّر . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِر ﴾ [ القمر : ١٠ - ١٤ ] ، وقال ههنا : ﴿ فَالْمُهَيَّبَةُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُون . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ والمشحون : هو المملوء بالامتعة والأرواح التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : أنجبنا نوحا ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحْوَهُمُ هُودٌ ﴿٢﴾ آلَا تَتَّقُونَ ﴿٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٤﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ أَتَيْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائِدَةً تَنْسِفُونَ ﴿٧﴾ وَتَسْخِدُونَ مَصَافِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿٨﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٩﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿١٠﴾ وَأَتَقُوا آلَآئِي أَمَّاكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ أَمَّاكُمْ بِاتِّعَابِ وَبَيْنَ ﴿١٢﴾ وَحَنَّتِ وَعْيُونُ ﴿١٣﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود ، عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكانوا قوماً يسكنون الاحقاف ، وهى : جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت من جهة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح ، وكانوا فى غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأوراق الدارة ، والأموال والجنات ، والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم تقمته وعذابه فى مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه ، إلى أن قال : ﴿ أَتَيْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائِدَةً تَنْسِفُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون فى الريح بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة . تبين هناك بنياناً محكما باهراً هائلاً ، ولهذا قال : ﴿ أَتَيْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائِدَةً ﴾ أى : معلماً بناء مشهوراً ﴿ تَنْسِفُونَ ﴾ وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم ، عليه السلام ، ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتاعب للأبدان فى غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ولهذا قال : ﴿ وَتَسْخِدُونَ مَصَافِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ قال مجاهد : المصانع : البروج المشيلة ، والبيان المخلد . وفى رواية عنه : بروج الحمام . وقال قتادة : هى مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء : « وَتَسْخِدُونَ مَصَافِحَ كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ » . وفى القراءة المشهورة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ : أى : لكى تقيموا فيها أبداً ، وليس ذلك بحاصل لكم ، بل رائل عنكم ، كما زال عن من كان قبلكم . وروى ابن أبى حاتم ، أن أبا الدرداء ، لما رأى ما أحدث المسلمون فى القوطة من البيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ! ألا تستحيون ! تجتمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتاملون ما لا تدركون ، قد كانت

قبلكم قرون ، يجمعون فيوعون ، وبينون فيوثقون ، وياملون فيطيلون ، فاصبح أملمهم غروراً ، وجمعهم بوراً ، واصبحت مساكنهم فيوراً ، إلا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ؟

وقوله : ﴿ وَإِذَا نَفَسْتُمْ نَفْسَكُمْ جِبَارِينَ ﴾ : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴾ : اي : اعبدوا ربكم ، واطيعوا رسولكم . ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنٍ . وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ اي : إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له ، بعدما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ اي : لا نرجع عما نحن فيه ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ هود : ٥٣ ] . وهكذا الامر ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ البقرة : ٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [ يونس : ٩٦ ، ٩٧ ] .

وقولهم : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فقرأ بعضهم : ﴿ إن هذا إلا خلقى ﴾ بفتح الحاء وتسكين اللام . قال ابن مسعود وابن عباس ، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا اخلاق الاولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبَهَا فِيهَا تَعْلَمُ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَسِيلًا ﴾ [ الفرقان : ٥ ] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِلَهُ الْقُرْآنِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [ الفرقان : ٤ ، ٥ ] ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رُبَّمَا قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [ النحل : ٢٤ ] . وقرأ آخرون : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بضم الحاء واللام ، يعنون : دينهم وما هم عليه من الامر هو دين الاوائل من الآباء والاجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ يقول : دين الاولين . وقاله عكرمة ، وعطاء الخراساني ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ اي : فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، اي : ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا اعنى شىء . واجبره ، فسلط الله عليهم ما هو اعنى منهم واشد قوة ، كما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ [ النمر : ٦ ، ٧ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكْنَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [ الحاقة : ٦ ، ٧ ] ، اي : كاملة ، ﴿ فَفَرَى الْقَوْمُ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْرًا حَاوِيَةً ﴾ [ الحاقة : ٧ ] ، اي : بقوا ابداناً بلا رؤوس ؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في

الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشذخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا يجمعون في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم ، فلم يخن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [ نوح : ٤ ] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَلْبُهُمْ فَأَهْلِكْنَاهُمْ ﴾ الآية .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤١﴾ إِلَىٰ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٤٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾

وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله صالح ، عليه السلام : أنه بعثه إلى قوم ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر ، التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكتبوه وخالفوه . فأخبرهم أنه لا يتنقى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ، عز وجل . ثم ذكرهم الآء الله عليهم فقال :

﴿ أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْ بِمَشَاءٍ مُّسْتَبِينَ ﴿١٤٥﴾ فِي جَنَّتِ وَعَيْبُونَ ﴿١٤٦﴾ وَرُزِقَ وَنَحَلَ طَلْعَهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَتَنَجَّتُونَ مِنْكَ الْجِبَالُ بَيُوتًا قَرَاهِينَ ﴿١٤٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٤٩﴾ وَالَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٠﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم تقم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الارزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحنورات ، وأنت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجارية ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَحَلَ طَلْعَهَا هَضِيمٌ ﴾ قال العوفي ، عن ابن عباس : أبيع وبلغ ، فهو هضم . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَنَحَلَ طَلْعَهَا هَضِيمٌ ﴾ يقول : مُعْشَبَةٌ . وأيضا عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَنَحَلَ طَلْعَهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : إذا رطب واسترخى . رواه ابن أبي حاتم . وقال أبو العلاء : ﴿ وَنَحَلَ طَلْعَهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : هو المذنب من الرطب . وقال مجاهد : هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال مجاهد : ﴿ وَنَحَلَ طَلْعَهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : حين يطلع تقبض عليه فهضمه ، فهو من الرطب الهضم ، ومن اليابس الهشيم ، تقبض عليه فهشمه . وقال عكرمة ، وقتادة : الهضم : الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة ، وركب بعضها بعضاً ، فهو هضم . وقال مرة : هو الطلع حين يتفرق ويخضر . وقال الحسن البصري : هو الذي لا نوى له . وقال أبو صخر : ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم ، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض ، فهو الهضم .

وقوله : ﴿ وَتَنَجَّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيُوتًا قَرَاهِينَ ﴾ قال ابن عباس ، وغير واحد : يعني : حاذقين . وفي رواية عنه : شهرين أشرين . وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً ويطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكنائها ، وكانوا حاذقين متقنين لاحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ؛ ولهذا قال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴾ : أي : أقبِلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم

لتوحده وتعبده وتسبحوه بكرة وأصيلا ، ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَعْلَمُونَ ﴾  
يعنى : رؤسائهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾ ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ فَمَقَرُّوَهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبئهم صالح ، عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة ربهم انهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين . وروى أبو صالح ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾ : يعنى من المخلوقين ، يعنى الذين لهم سُحُور ، والسُّحْر : هو الرقة . والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : انهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك .

ثم قالوا : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ يعنى : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ أَوْ لَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَطْمَنُونَ عِنْدَ مِنَ الْكُذَّابِ الْأَشْرِ ﴾ [ القمر : ٢٥ ، ٢٦ ] .

ثم انهم اقترحوا عليه آية يأتبهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشاء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا . فمئذ ذلك اخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق ، لئن اجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك . فقام نبي الله صالح ، عليه السلام ، فصلى ، ثم دعا الله ، عز وجل ، أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عشاء ، على الصفة التى وصفوها . فأمن بعضهم وكفر آخرون ، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ، ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فحلزهم نعمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتاكل الورق والمرعى . ويتصفون بلبنها ، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الامد وحضر شقاؤهم ، تمالؤوا على قتلها وعقرها ﴿ فَمَقَرُّوَهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو أن أرضهم رُكِّزَتْ زلزلاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن اخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون « سدوم » وأعمالها التى أهلكها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهى

مشهورة ببلاد الغور، بناحية جبال البيت المقدس ، فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يعطوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكوان دون الإناث ؛ ولهذا قال تعالى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَلِ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ ﴿١٦٥﴾ قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِأَلْوَابٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ ﴿١٦٦﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٧﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٩﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ ﴿١٧٠﴾ ثُمَّ دَعَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٧١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٤﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جوابهم له إلا أن قالوا : ﴿لَنْ نَمُوتَ بِأَلْوَابٍ﴾ أى : عما جئتنا به ، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ﴾ أى : نفيك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَّبِعُونَ﴾ [ النمل : ٥٦ ] ، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرين على ضلالتهم ، تبرأ منهم وقال : ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أى : المبغضين ، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فانا برىء منكم . ثم دعا الله عليهم فقال : ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أى : كلهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ﴾ وهى امراته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقى من قومها ، حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امراته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذى عم جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال : ﴿ثُمَّ دَعَرْنَا الْآخِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ إلى قوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٧٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْتَقُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٧٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٩﴾

هؤلاء . يعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالقيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلهاذا لما قال : ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، لم يقل : ؛ إذ قال لهم أخوهم شعيب ، ، وإنما قال : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ، فقطع نسبة الاخوة بينهم ؛ للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يفظن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيباً ، عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .

والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا فى كل مقام بشيء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيا

والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أى : إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا الكيل لهم ، ولا تبخسوا الكيل فتمطوه ناقصا ، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاما وافيا ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ والقسطاس هو : الميزان، وقيل : القبان . وقال قتادة : القسطاس : العدل . وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى : لا تنقصوهم أموالهم ، ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ معنى : قطع الطريق ، كما في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [ الأعراف : ٨٦ ] . وقوله : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يخوفهم بأس الله الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى ، عليه السلام : ﴿ رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [ الصافات : ١٢٦ ] . قال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يقول : خلق الاولين .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلُمَةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها حيث قالوا : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : نتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قال الضحاك : جانبا من السماء . وقال قتادة : قطعا من السماء .. وقال السدى : عذابا من السماء . وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْرًا ﴾ ، إلى أن قالوا : ﴿ أَوْ نَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [ الإسراء : ٩٠ - ٩٢ ] . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [ الأنفال : ٣٢ ] ، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة : ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ﴿ قَالَ رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم ، وكذلك وقع بهم كما سألوا ، جزاء وفاقا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلُمَةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله ، سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدا مدة سبعة أيام لا يكتنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلمتهم ، فجعلوا يظلمون إليها يستظلون بظلمها من الحر ، فلما اجتمعوا تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ، ولها وبهجاً

عظيماً ، وَرَجَعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ أَرْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، وفى الاعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ بِأَسْمَاءِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنُؤَدِّنَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [ الامراء : ٨٨ ] ، فأرجفوا بنى الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفى سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [ الآية ٩٤ ] (١) ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنى الله فى قولهم : ﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَقُولَ مَا يَهْدِي آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [ هود : ٨٧ ] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب ان تأتيهم صيحة تسكهم ، فقال : ( فأخذتهم الصيحة ) . وههنا قالوا : ﴿ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ على وجه التعتن والعداوة ، فناسب ان يحق عليهم ما استبدلوا وقوعه : ﴿ فَأَخْلَعْنَاهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴾ . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا لِيُبَيِّنَ لَكَ آيَاتِنَا وَتُبَيِّنَ لِقَوْمِكَ أَيْدِيَهُمْ أَلَّا يَكُونَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [ يس : ١٢٤ ]

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : القرآن الذى تقدم ذكره فى اول السورة فى قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الْمُنذِرِ ﴾ [ الآية : ٥ ] ﴿ لَنُنزِّلَنَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أنزله الله عليك وأوحاه إليك ، ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ وهو جبريل ، عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وههنا ما لا نزاع فيه . قال الزهرى : وهذه كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [ البقرة : ٩٧ ] . وقال مجاهد : من كلمه الروح الامين لا تأكله الارض . ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِكُتُوبٍ مِنَ الْمُتَلِّينِ ﴾ أى : نزل به ملك كريم امين ، ذو مكانة عند الله ، مطاع فى الملا الاعلى ، ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ، سالماً من النجس والزيادة والنقص ؛ ﴿ لِكُتُوبٍ مِنَ الْمُتَلِّينِ ﴾ أى : لتنتز به بأس الله وتقمته على من خالفه وكنبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له .

وقوله : ﴿ يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربى الفصحى الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعذر ، مقياً للحجة ، دليلاً إلى للحجة .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [٢] أَوْ لَوْ كَانَ لَمْ يَكُنْ هَآئِهِ أَنْ يَمْلَأَهُ حَلَمَتَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٣﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٤﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥﴾

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الاولين الماثورة عن انبيائهم الذين

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ وفى فى سورة الحجر ، الآية ( ٧٣ ) و ( ٨٣ ) . وليست فى سورة هود كما ذكر الحافظ . وأظنه وقع سهواً من النسخ ، ولم يستدركه الطابع ؛ قاله المستعان .  
(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : فربهم ؛ وهو خطأ .

بشروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطياً في ملكه بالشارة بأحمد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُبَشِّرًا لِمَنْ هُوَ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُنذِرًا بِرَسُولِي يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [ الصف : ٦ ] ، والذير ههنا هي الكتب وهي جمع زبرة ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَتْوَاهُ فِي الزَّبُورِ ﴾ [ القمر : ٥٧ ] أي : مكتوب عليهم في صحف الملائكة . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَهِمْ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : أو ليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها ؟ والمراد : المدلول منهم ، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمه ، أخير بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم . وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية [ الاحراف : ١٥٧ ] .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن ؛ أنه لو أنزل على رجل من الاعاجم ، ممن لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرَجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْهَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ [ الحجر : ١٤ ، ١٥ ] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَسْرُورَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [ الانعام : ١١١ ] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ كَلِمَاتٌ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [ يونس : ٩٦ ، ٩٧ ] .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٤﴾ أَمْ عَلَيْنَا سِتْرٌ عَلِيمُونَ ﴿٥﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٦﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٧﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٨﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَمَّا سُيِّدُوا وَكُنُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٩﴾ ﴾

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكلدب والكفر والجهود والعناد ، أي : أدخلناه في قلوب للمجرمين ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : بالحق ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي : حيث لا ينفع الظالمين معلنرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي : عذاب الله بغتة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أي : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا بطاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ ظَلَمْنَا رَبَّنَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ نَكُونُوا لِمَنْ قَبْلَ مَا نَكُنْ مِنْ رِوَالٍ ﴾ [ إبراهيم : ٤٤ ] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ، ندم ندماً شديداً . هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى قوله : ﴿ قَالَ فَمَا جِئْتِ دَعْوَتُكَ ﴾ [ يونس : ٨٨ ، ٨٩ ] ، فآثرت هذه الدعوة في فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الاليم ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَتْ أَوْرَاقُهُمْ قَالَ لَوَّاهُ أَمْسَتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آذَانَ وَقَدْ غَشِيَتْ قَبْلَ وَكُنْتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [ يونس : ٩٠ ، ٩١ ] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّثْنَا بِمَا

كَمَا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَفْقَهُهُمْ لِإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَاتَا ﴿ الآية [ غافر : ٨٤ ، ٨٥ ] .

وقوله تعالى : ﴿ الْبَعْدَابَا يَسْتَجْلِبُونَ ﴾ : إنكار عليهم ، وتهديد لهم ؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ﴿ إِنَّا بَعْدَابُ اللَّهِ ﴾ [ المنكوت : ٢٩ ] ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَجْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيات [ المنكوت : ٥٣ ] . ثم قال : ﴿ الرَّأْيَاتُ إِنْ مَشَتْهُنَّ سَبِينٌ . ثُمَّ جَاءَهُنَّ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُنَّ مَا كَانُوا يُمْتَصُونَ ﴾ أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أى شيء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعم ، ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْمُوهَا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضَحَاةً ﴾ [ النازعات : ٤٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَّزَحٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ ﴾ [ البقرة : ٩٦ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [ الليل : ١١ ] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُنَّ مَا كَانُوا يُمْتَصُونَ ﴾ . وفى الحديث الصحيح : « يؤتى بالكافر فيخمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان فى الدنيا ، فيصيح فى الجنة صبيغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب » أى : ما كان شيئاً كان (١) . ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

كَأَنَّكَ لَمْ تُؤْتِرْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً      إِذَا أَنْتَ أَدْرَكْتَ الَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، وَالْإِنذَارِ لَهُمْ وَبِعِثَةِ الرِّسْلِ إِلَيْهِمْ وَبِقِيَامِ الْحُجُجِ عَلَيْهِمْ ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قُرْبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذُكِرُوا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [ الإسراء : ١٥ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانِ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْظُرُ عَلَيْهِمْ آبَاتًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَهْلَاهَا ظَالِمُونَ ﴾ [ القصص : ٥٩ ] .

﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ وَمَا يَنْبِئُ لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزِيل من حكيم حميد : أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ . ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه ما ينبئ لهم ، أى : ليس هو من يقينهم ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبِئُ لَهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى : ولو أنبئ لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [ الحجر : ٢١ ] .

ثم بين أنه لو نفى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً شهباً فى مدة إنزال القرآن على رسوله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لئلا يشبه الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأنيده لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ كما قال

تعالى مخبراً عن الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْتَهَا مُكْتَمِتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٨ - ١٠] .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونِ مِنَ الْمَعذِبِينَ ﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٠﴾  
وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحِيمِ ﴿١٣﴾ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٤﴾ وَقَلْبُكَ فِي السُّجُودِ ﴿١٥﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الاذنين إليه ، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا بإيمانه بربه ، عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كاتماً من كان فليتبأ منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة ، بل هي فرد من اجزائها ، كما قال : ﴿ تُنذِرُ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا أُولَئِهِمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ، وقال : ﴿ تُنذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الانعام : ١٠] ، وقال : ﴿ يُنذِرُ بِهِ الْمُسْكِنِينَ وَلِيُبَلِّغَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ، وقال : ﴿ لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الانعام : ١١٩] ، كما قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وفى صحيح مسلم : « والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » (١) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

الحديث الأول : روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : « يا صباحاه » . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد] . ورواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى (٢) .

الحديث الثانى : روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم » . انفرد بإخراجه مسلم (٣) .

الحديث الثالث : روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش ، أتقنوا أنفسكم من

(١) مسلم (١٥٣ / ٢٤٠) .

(٢) البخارى (٤٨٠١) ومسلم (٢٠٨ / ٣٥٦) والنسائى فى الكبرى (١١٧١٤) والترمذى (٣٣٦٣) .

(٣) المسند (١٨٧ / ٦) ومسلم (٢٠٥ / ٣٥٠) .

النار . يا معشر بنى كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار ، فإنى - والله - ما أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رَحِمًا سَأْبِلُهَا بِبِلَالِهَا . ورواه مسلم (١) .

الحديث الرابع : روى الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق ووهيب بن عمرو قالوا : لما نزلت : ﴿ وَأَنْبِئْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، صد رسول الله ﷺ رَضْمَةً من جبل على أهلها حجر ، فجعل ينادى : يا بنى عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو ، فلهب يربأ أهله ، يخشى أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه . ورواه مسلم والنسائي (٢) .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد عن علي قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْبِئْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا . قال : وقال لهم : « من يضمن عني ديني ومواعيدي ، ويكون معي في الجنة ، ويكون خليفتي في أهلي ؟ » . فقال رجل - لم يسمه شريك : يا رسول الله ، أنت كنت بحراً ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال علي : أنا (٣) .

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق : روى أحمد عن علي قال : جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بنى عبد المطلب ، وهم رهطٌ ، كلهم يأكل الجلدة ويشرب الفرق ، فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا ، قال : وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغمراً فشربوا حتى رووا ، وبقي الشراب كأنه لم يمس - أو لم يشرب - وقال : « يا بنى عبد المطلب ، إنى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يابى عنى أن يكون أخى وصاحي ؟ » . قال : فلم يقم إليه أحد . قال : فقمتم إليه - وكنت أصغر القوم - قال : فقال : « اجلس » . ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : « اجلس » . حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي (٤) .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه في أهله ، يعنى : إن قتل في سبيل الله ، كأنه خشي إذا قام بأعياء الإنذار أن يقتل ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَّا يَلْفُتْ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَهْتَمُّ بِالنَّاسِ ﴾ [ المائدة : ٦٧ ] ، فعند ذلك آمن . وكان أولاً يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَهْتَمُّ بِالنَّاسِ ﴾ . ولم يكن أحد في بنى هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من علي ، رضى الله عنه ؛ ولهنذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دهاله الناس جبهة على الصفا ، وإنذاره لبطون قريش عموماً وخصوصاً ، حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالأدنى على

(١) المسند ( ٨٧١١ ) ومسلم ( ٢٠٤ / ٣٤٨ ) .

(٢) المسند ( ٦٠ / ٥ ) ومسلم ( ٢٠٧ / ٣٥٣ ) والنسائي في الكبرى ( ١١٣٧٩ ) .

(٣) المسند ( ٨٨٣ ) وقال الشيخ شاکر : « إسناده حسن » .

وقوله : « أتت كنت بحراً » هو في المخطوطة هكذا : « إن كنت بحرى » وفي المطبوعة : « أتت كنت بحراً » وكلاماً خطأ لا معنى له ، صوابه ما أتته كما في المسند ، وهو - كما قال شاکر - كتابة عن رابع كرمه وجوده ﷺ . (٤) المسند ( ١٣٧١ ) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » . و « الفرق » - يفتح الفاء والراء : مكيال يسع ستة عشر رطلاً ، وهي اثنا عشر مداً أو ثلاثة أصع عند أهل الحجاز كلها في النهاية . و « الغمر » - بضم الفين وفتح الميم : الدخ الصغير .

الاعلى ، اى : إنما انا نذير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَازِيَةِ الرَّحِيمِ ﴾ اى : فى جميع أمورك ، فإنه مؤيدك وحافظك ومظفرك ومُعَلِّمُ كلمتك . وقوله : ﴿ الَّذِي يَبْرَأُكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ اى : هو معتن بك ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ <sup>(١)</sup> لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [ الطور : ٤٨ ] . قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَبْرَأُكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعنى : إلى الصلاة . وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده . وقال الحسن : ﴿ الَّذِي يَبْرَأُكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ : إذا صليت وحدك . وقال الضحاک : ﴿ الَّذِي يَبْرَأُكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ اى : من فراشك أو مجلسك . وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَبْرَأُكَ ﴾ : قائما وجالسا وعلى حالاتك . وقوله : ﴿ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال قتادة : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجمع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى . وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من امامه ؛ ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : « سَوَّأَ صفوفكم ؛ فإنى اراكم من وراء ظهرى » <sup>(٢)</sup> .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ اى : السميع لاقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتَرَفُّ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ ﴾ الآية [ يونس : ٦١ ] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَزَلُّ الشَّيَاطِينُ ﴾ تَزَلُّ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيرٍ ﴿٣٥﴾ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٣٦﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٨﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى مُتَقَلِّبٍ يَقْلِبُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس بحق ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رضى من الجن ، فتنزه الله ، سبحانه ، جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبيل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال الله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ اى : أخبركم ﴿ عَلَىٰ مَن تَزَلُّ الشَّيَاطِينُ . تَزَلُّ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيرٍ ﴾ اى : كذب فى قوله ، وهو الآفَاك ، الاثيم ، اى : الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة .

﴿ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ ﴾ اى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه ، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى ، عن عائشة قالت : سألت ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال : «إنهم ليسوا بشيء» . قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا ؟ فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها

الجنى ، فَيَقْرَئُهَا فِي أذنِ وَلِيهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة (١) . وروى البخارى عن أبى هريرة قال : إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، حتى إذا نُزِعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا بعضهم فوق بعض » . ووصف سفيان بيده فحرفها ، وبَدَدَ بين أصابعه « فيسمع الكلمة ، يليقها إلى من تحته ، ثم يليقها الآخر إلى من تحته ، حتى يليقها على لسان الساحر - أو الكاعن - فربما أدركه الشهاب قبل أن يليقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : اليس قد قال لنا يوم كنا وكذا : كنا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » . انفرد به البخارى (٢) . وروى البخارى عن عائشة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تتحدث في العنان - والعنان : الغمام - بالامر في الارض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرأها في أذن الكاعن كما تقرأ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » (٣) .

وقوله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد ، رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما . وقال عكرمة : كان الشعراء يتهاجيان ، فيتصر لهننا فتأم من الناس ، ولهذا فتأم من الناس ، فانزل الله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قال ابن عباس : فى كل لغو يخوضون . وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره . وقال الحسن البصرى : قد - والله - رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها ، مرة فى شتمة فلان ، ومرة فى مديحة فلان . وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل . وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذى قاله ابن عباس هو الواقع فى نفس الامر ؛ فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكبرون بما ليس لهم . والمراد من هذا : أن الرسول ﷺ الذى أنزل عليه القرآن ليس بكاعن ولا بشاعر ؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتَهُمُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [ يس : ٦٩ ] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تَزْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَمَا يَفْعَلُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [ الحاقة : ٤٠ - ٤٣ ] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ . تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آثَمٍ يَثْمٍ . يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقاتدة ، وزيد ابن أسلم ، وغير واحد : إن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأتاب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً فى مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ،

فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتنح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بذمه ، كما قال عبد الله بن الزبير حين أسلم :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ  
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدَاةِ ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوهُ ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وهكذا روى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطينهن قال : « نعم » . قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك . قال : « نعم » . قال : وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين . قال : « نعم » . وذكر الثالثة (١) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً في كلامهم . وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لسان : « اهجمهم - أو قال : هاجهم - وجبريل معك » (٢) . وقوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [ غافر : ٥٢ ] وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » (٣) . وقال قتادة بن دعامة في قوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ يعنى : من الشعراء وغيرهم . وقال عبد الله بن رباح ، عن صفوان بن محرز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية - بكى حتى أقول : قد اندق قضيبي زوره - : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، كما روى ابن أبي حاتم عن عائشة ، قالت : كتب أبى وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهى الفاجر ، ويصدق الكاذب : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنى به ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

(١) مسلم ( ٢٥٠١ / ١٦٨ ) . والثالثة قوله : « عندى أحسن العرب وأجمله ، أم حبيبة بنت أبى سفيان أزوجكها » .

(٢) البخارى ( ٦١٥٣ ) ومسلم ( ٢٤٨٦ / ١٥٣ ) .

(٣) مسلم ( ٢٥٧٨ / ٢٥٦ ) .